الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو

أ – ازدهار تجارة القوافل عبر الصحراء

ب – طرق القوافل بين دولة الكانم وبلاد المغرب

ج – مراكز التجارة بين المغرب ودولة الكانم والبرنو

د – السلع المتبادلة وطرق التعامل التجاري بين المغرب والكانم والبرنو

هـ – أثر التجارة في التواصل الحضاري بين المغرب ودولة الكانم والبرنو

أ – ازدهار تجارة القوافل عبر الصحراء

لقد لعب موقع منطقة بحيرة تشاد دوراً مهماً في جعلها صلة وصل بين الشمال والجنوب ، فوقوعها على الطرف الجنوبي للصحراء جعلها منفذاً لا غنى عنه لمنتجات الشمال المتجهة نحو أواسط أفريقيا ، كما جعلها من جهة أخرى منفذاً للبضائع الأفريقية المتجهة نحو الشمال[1] ، كما أن عدم وجود حدود ثابتة بين منطقة بحيرة تشاد ومنطقة فزان جعلها امتداداً لها ، حيث يذكر البكرى إن كانم امتدت وراء صحراء زويله[2] ، كما يؤكد ابن حوقل هذا التداخل بين بلاد المغرب ومنطقة بحيرة تشاد حيث يقول عن بلاد السودان(وحدًاله ينتهي إلى برية بينه وبين أرض المغرب)[3]،فابن حوقل هنا لم يضع حدوداً ثابتة بين المنطقتين ويؤكد هذا البكري بقوله (ان كانم امتدت وراء صحراء زويلة) [4].

لقد أثر انتشار الإسلام في المنطقة تأثيراً إيجابياً على النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها بحكم أن الإسلام " فتح أمامهم أبواب العالم الإسلامي ، وباتصالهم بإخوانهم المسلمين كسبوا الكثير من المعارف منها فنون التجارة " [5] إلا أن العلاقة التجارية بين بلاد المغرب ومنطقة بحيرة تشاد سبقت وصول الإسلام إلى المنطقة بعدة قرون[6] ،حيث حدثنا هيرودوت عن خمسة من الشباب

---

[1] – أنظر الخريطة في الملحق رقم (15)

[2] – البكرى – المصدر السابق – ص 11

[3] - ابن حوقل – المصدر السابق – ص 24

[4]- البكري – المصدر السابق – ص 11

[5]– فضل كلود – المرجع السابق – ص 277

[6] – لقد وردت في تاريخ هيرودوت إشارات عن وجود اتصالات بين بلاد المغرب وبلاد السودان فقد ذكر إن الجرمانتيين كانوا يصطادون الأثيوبيين من سكان الحفر أو الكهوف في مركبات صغيرة تجرها أربعة خيول، والمرجح أن هؤلاء الاثيوبين هم سكان جبال تيبستي (أنظر بوفيل – المرجع السابق –ص 47)

انطلقوا من منطقة سرت واتجهوا جنوباً بهدف استكشاف مناطق وسط أفريقيا[1]، كما دلت رسوم العربات المنتشرة على الصخور والكهوف على طول طرق القوافل القديمة من فزان إلى منطقة بحيرة تشاد على عراقة الصلات التجارية بين المنطقتين ، فقد كان هناك طريقان يربطان منطقة الشمال الأفريقي بوسط القارة يقع أحدهما في الغرب ويخرج من جنوب المنطقة التي بنيت فيها مراكش فيما بعد ويصل إلى منطقة النيجر الأعلى ، ويخرج الآخر من فزان حتى يصل إلى الجانب الشرقي من انحناءه نهر النيجر[2] .

استمرت العلاقات التجارية بين مناطق الساحل ومناطق وسط أفريقيا بعد قدوم الفينيقيين للمنطقة وبناء المدن الثلاث " لبدة – أويا – صبراته[3] " فعلى الرغم من أن الفينيقيين لم يتوغلوا في الداخل إلا أن هذه المدن أصبحت منافذ للتجارة الأفريقية التي كان السكان المحليون يجلبونها من أفريقيا عن طريق القوافل وأكبر دليل على ما نقول هو أن طرابلس كان يطلق عليها اسم بوابة الصحراء[4] وبعد قيام دولة قرطاجة في شمال أفريقيا ازدهرت تجارتها مع بلاد السودان [5] وكان من أبرز البضائع التي جلبت من تلك المنطقة العقيق والذهب والرقيق [6] وحتى سنة 500 ق . م كان تجار قرطاجه يفدون للتجارة مع سكان تيبستى الذين يعيشون في بلاد ممطرة كثيرة التماسيح والزواحف [7] وهذه الصفات المناخية تنطبق إلى حد كبير على منطقة بحيرة تشاد فمن المعروف أن التماسيح لاتعيش

---

(1) – بوفيل – المرجع السابق – ص 48

(2) – فيج جى دى – المرجع السابق – ص 45

(3) – لقد أسس الفينيقيون هذه المدن كمستعمرات تجارية تقف عندها سفنهم خلال تحركاتهم في البحر المتوسط

(4) – بوفيل – المرجع السابق – ص 57

(5) – هوبكينز – التاريخ الإقتصادى لأفريقيا العربية– ترجمة أحمد فؤاد بلبع – القاهرة – المجلس الأعلى للثقافة – 1998 – ص 158

(6) – فيج جى دى – المرجع السابق – ص 43

(7) – بوفيل – المرجع السابق – ص 79

إلا قرب البحيرات والأنهار مما يدل على وصول التجارة القرطاجيه إلى منطقة بحيرة تشاد .

أما الرومان الذين استولوا على شمال أفريقيا خلال القرن " الثاني الميلادي " فقد توغلوا في الداخل عن طريق حملة بالبوس التي سيطر فيها على بلاد الجرمانتيين، ثم تحسنت العلاقة بين الطرفين وقاما بحملة مشتركة بقيادة فلاكس منطلقة من جرمة حتى وصلت جبال تيبستى على الأرجح [1].

لقد ظهر عامل مهم اسهم في ازدهار التجارة بين الشمال والجنوب عبر الصحراء وهو دخول الجمل إلى مجال النقل التجاري في القرن الرابع الميلادي[2]، وقد تزامن دخول الجمل مع التغيرات المناخية التي بدأت تشهدها المنطقة والمتمثلة في نقص الأمطار تدريجياً[3] ، واقتصار وجود الماء على الواحات المتناثرة في الصحراء مما جعل الضرورة ملحة إلى وجود وسيلة نقل تتحمل العطش لمسافات طويلة، وقد استمرت الحركة التجارية مزدهرة بعد دخول المسلمين إلى بلاد المغرب، حيث كان من نتائج وصول الإسلام إلى المنطقة انتشار الأمن مما أدى إلى ازدهار حركة القوافل بين شمال الصحراء وجنوبها ، كما أصبحت هذه القوافل تحمل إلى جانب بضائعها ديناً جديداً سرعان ما انتشر في بلاد الكانم والبرنو واسهم في خلق رابط روحي بين سكان بلاد الكانم وبلاد المغرب، وأنعكس هذا الرابط بالتأكيد بشكل إيجابي على العلاقات التجارية بين الطرفين[4]

---

(1) – أمين الطيبى – المرجع السابق – ص 72

(2)- البرغوثى – التاريخ الليبي القديم – ص 319

(3) – فيج جى دى – المرجع السابق – ص 42

(4) – لقد تناولنا هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الأول من هذا البحث " أنظر ص 23 من هذا الفصل

ب / طرق القوافل بين دولة الكانم وبلاد المغرب

لقد لعب الموقع الجغرافي دوراً كبيراً في تحديد مسارات القوافل التجارية عبر الصحراء حيث ارتبطت دولة الكانم والبرنو بحكم موقعها المتاخم للمغرب الأدنى مع مناطق شمال الصحراء بشبكة من الطرق التجارية منذ عصور قديمة ، وبعد دخول الإسلام إلى مناطق شمال أفريقيا رأينا كيف سلك عقبة بن نافع في حملته على كاوار نفس الطرق تقريباً ، ومن جهة أخرى فإن اتساع الصحراء وقلة المياه بها[1] قد حتم وجود مسالك معينة للقوافل التجارية بين بلاد المغرب ومنطقة بحيرة تشاد ، حيث يقول الأصطخرى : " وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب لصعوبة المسالك[2]

طرق القوافل بين طرابلس ودولة الكانم :

لقد توفرت عدة عوامل ساعدت على نشاط حركة القوافل بين منطقة طرابلس ومنطقة بحيرة تشاد منها : -

1 – إن ساحل البحر المتوسط في منطقة سرت يعرج إلى الداخل مما اسهم في تقريب المسافة بين هذه البلاد ووسط أفريقيا ، خاصة إذا تمت مقارنة هذا الساحل بسواحل المغرب الأدنى أو الأقصى التي تبتعد كثيراً نحو الشمال عن أواسط أفريقيا[3]، فوقوع طرابلس على البحر من جهة وتوغل الاراضي التابعة لها نحو الداخل بحيث تلامس حدودها الجنوبية اراضي بلدان الصحراء الكبرى [4]، كان من عوامل ازدهار العلاقات التجارية بين طرابلس وبلاد الكانم والبرنو .

2- وقوع واحات فزان في موقع متوسط بين الساحل ومنطقة بحيرة تشاد مما جعلها محطات طبيعية تزود القوافل بما تحتاجه من ماء وزاد .

---

(1) – ابن حوقل – المصدر السابق – ص 100

(2) – إبراهيم محمد الأصطخرى – مسالك الممالك – بيروت – دار صادر – " د . ت " ص 40

(3) – أنظر الخريطة في الملحق رقم / 13

(4) –لمياء محمد سالم – تجارة طرابلس مع بلاد ماوراء الصحراء في العصر الوسيط – مجلة البحوث التاريخية – طرابلس – مركز دراسات جهاد الليبين – عدد 2 – يوليو – 2001 – ص 143

3 – اختلاط العناصر السكانية في المنطقتين حيث رأينا أن الكثير من القبائل التي استقرت في منطقة بحيرة تشاد قد جاءت أصولها الأولى من الشمال[1] كما أن الكثير من قبائل بحيرة تشاد قد استقرت في منطقة فزان[2] ، ولاشك أن اختلاط العناصر السكانية قد اسهم في زيادة التبادل التجاري بين المنطقتين .

4 – عدم وجود حواجز طبيعية تفصل بين منطقة طرابلس ومنطقة بحيرة تشاد كالجبال العالية أو الأنهار ، فالجبال الوحيدة التي تقع بين المنطقتين وهى جبال تيبستى كانت " توجد ممرات كثيرة واسعة مستوية بينها " [3] .

لهذه الأسباب نشطت تجارة القوافل بين منطقة طرابلس ودولة الكانم والبرنو وتحددت طرق معروفة للقوافل التجارية يمكن تلخيصها فيما يلى : –

1 – طريق سرت – مرزق – زويله – كاوار[4] ، وهذا الطريق يتجه من منطقة سرت ذات الموقع المتوسط بين غرب ليبيا وشرقها ويمر في خط شبه مستقيم بالمناطق التي ذكرناها حتى يصل إلى كاوار ، ومن الطبيعى بحكم تداخل بلاد كاوار مع دولة الكانم والبرنو أن يستمر هذا الطريق عبر جبال تيبستى حتى يصل منطقة بحيرة تشاد [5] .

---

[1] – من أبرز هذه القبائل التي تحركت من الشمال نحو منطقة بحيرة تشاد قبائل الطوارق والتيبو الذين ساهموا في تأسيس دولة الكانم والبرنو ، وكذلك القبائل العربية التي ساهمت في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك المنطقة ." أنظر : السعدى– المصدر السابق ص 26، الذهبى – المصدر السابق– جـ 1 – ص 37

[2] –الحضيرى – المرجع السابق – ص 44

[3] – ابن حوقل – المصدر السابق – ص 100

[4] – اليعقوبى – البلدان – ص 103

[5] – أنظر الخريطة في الملحق رقم16

2 – طريق طرابلس : الجفرة – سبها – زويله – بلما – بحيرة تشاد[1] بمـــروره بالكثير من المناطق مثل بنى وليد[2] وأبو نجيم وودان حتى يصل إلى ســبها ثــم يواصل طريقه إلى جبال تيبستى حتى يصل إلى منطقة بحيرة تشاد[3] .

3 – طريق طرابلس– غدامس– غات – مرزق – تادمكــه – بحيــرة تــشاد[4] . وهناك طريق داخلي يربط هذا الطريق بمرزق ، ويتميز هذا الطريق بالربط بــين دولة الكانم ومناطق المغرب الأدنى والأوسط بحكم وقوع غدامس وغات في الجهة الغربية من تلك المناطق .

4 – طريق بنغازي – الكفرة – أبشه – واداى ، وهذا الطريق يصل إلى المناطق الواقعة إلى الشرق من بحيرة تشاد ، ولكن هذه المناطق كانــت فــي كثيــر مــن الأحيان تقع ضمن نفوذ دولة الكانم والبرنو .

هذه أهم الطرق التي ربطت بين منطقة بحيرة تشاد وإقليم طرابلس وإن كانت هذه الطرق لم تبق ثابتة طوال القرون فبعض الدواعي السياسية كانت تــدفع القوافــل لتغيير مسالكها بشكل مؤقت ولكن الاتجاهات عموماً بقيت ثابتة[5] أى من الــشمال إلى الجنوب وبالعكس [6] .

- **طرق القوافل بين الكانم والبرنو والمغرب الأدنى**

لقد رأينا عند حديثنا عن طرق القوافل بين طرابلس ومنطقة بحيرة تشاد أن هــذه الطرق متعددة مما يدل على ازدهار العلاقات التجارية بين الطرفين وعرفنا بعض الأسباب التي أدت إلى ازدهار تجارة القوافل بين الطرفين ، أما العلاقات التجارية

---

[1] – البكرى – المصدر السابق – ص 12

[2] – توجد بهذه المنطقة الكثير من الشواهد الأثرية كالأسواق والقصور التــي ترجــع إلــى العهــد الرومانى وتدل على إنها معبراً لطرق القوافل منذ القدم.

[3] – سلفادور بونو – تجارة طرابلس عبر الصحراء – مجلة البحوث التاريخية – مركــز دراســات جهاد الليبيين – العدد 1 يناير – 1981 م . ص 83 .

[4] – البكرى – المصدر السابق – ص 10

[5] – إبراهيم حركات – المرجع السابق – ص 30

[6] – لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع أنظر : أحمد الياس حسين – الطرق التجاريــة عبــر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر ميلادي كما عرضها الجغرافيون العرب – رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة القاهرة – كلية الاداب – 1977م

بين الكانم والبرنو والدولة الحفصية فلم تكن بنفس درجة الازدهار مع طرابلس وترجع عوامل ضعف هذه العلاقة إلى الموقع الجغرافي فموقع بحيرة تشاد كامتداد طبيعي لمنطقة طرابلس وفزان اسهم في نمو التبادل التجاري بين الطرفين وجعل سكان الواحات الليبية يتحكمون في طرق القوافل التجارية ، ومن جهة أخرى فإن ظهور الأباضية وسيطرتهم على جبل نفوسة والمناطق المتاخمة له من الجنوب قد جعلهم يسيطرون على طرق القوافل مع الكانم والبرنو ، ومن المعروف أن الأباضية يختلفون مع الدولة الحفصية مذهبياً ويخوضون ضدها صراعا فكريا ومن هنا فقد أصدر علماء المالكية في القيروان فتوى تجعل التجارة مع بلاد السودان مكسباً غير طيب[1] ، وذلك بهدف إضعاف القوة الاقتصادية للأباضية التي تعتمد على تجارة القوافل مع السودان ، ولكن هذا لايعنى توقف تجارة القوافل بين الحفصيين ودولة الكانم والبرنو ، فقد عرف طريق للقوافل يبدأ من تونس ويمر بغدامس ثم غات ثم مرزق حتى يصل إلى بحيرة تشاد[2].

ومن جهة أخرى فإن الصلات التجارية بين المغرب الأدنى ومنطقة توات وسجلماسه وتمبكتو قد أوصلت منتجاتها إلى بلاد الكانم والبرنو عبر تلك المناطق المتاخمة لهذه الدولة من جهة الغرب وينطبق هذا أيضاً على المغرب الأوسط والأقصى فاتساع المساحة الجغرافية الفاصلة بين هذه المناطق ومنطقة بحيرة تشاد يجعل من المتعذر وجود طرق اتصال مباشرة بينهما ولكن العلاقة التجارية بين المغرب الأدنى والأقصى وبين السودان الغربي قد أثر بلا شك على الحياة الاقتصادية في الكانم والبرنو .

بقيت نقطة أخيرة عن أوضاع القوافل خلال سيرها عبر طرق الصحراء وأول ما نلاحظه حول هذه الأوضاع أن القوافل كانت تختار لبداية سيرها فصل الشتاء وذلك تجنباً لحرارة الصيف ، وكان رجال القافلة يضعون الأحمال على

---

[1] – عزا لدين عمر موسى – طريق عبر الصحراء الليبية من المغرب الأقصى إلى مصر – مجلة البحوث التاريخية – عدد 1 يناير – 1983 م – ص 110

[2] – البكرى – المصدر السابق – ص 10

الجمال في الصباح الباكر ويغدون في سيرهم إلى وقت الظهيرة حيث تتوقف القافلة للراحة ثم تواصل سيرها مع المساء إلى أن يغشاها الظلام فتتوقف للمبيت[1] ويختلف عدد جمال القافلة فقد تصل إلى بضع مئات[2]، والمؤكد هنا أن التجار كانوا يحرصون على الخروج في قوافل كبيرة خوفاً من قطاع الطرق .

ج / مراكز التجارة بين المغرب ودولة الكانم والبرنو

لم تكن الصحراء يوماً ما فاصلاً بين بلاد المغرب ومناطق السودان ، بل كانت جسراً ربط بين السكان في شمالها وجنوبها كما أن الصحراء لم تكن كما وصفها البعض بأنها " أرض الجدب والفقر ، وليس فيها إلا مفازات جافة رملية غير صالحة للسكن في أغلب الأحيان "[3]، وكان من الطبيعي أن تجد القوافل التجارية بعض المراكز التي تستريح فيها وتتزود بالماء والزاد لمواصلة رحلتها الطويلة [4] .

لقد اشتهرت بعض مدن الصحراء كمراكز اتصال بين شمالها وجنوبها وكمحطات تجارية أمتهن أهلها التجارة و استفادوا من القوافل المارة بمدنهم ، وكان من الأعمال التي يقوم بها أهل هذه المدن حراسة القوافل وتأجير أو بيع الجمال

---

[1] – الأدريسى – المصدر السابق – ج1– ص 107

[2] – محمد زنيبر " تجارة القوافل في المغرب " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر – بغداد– معهد البحوث والدراسات العربية – 1984 م – ص 182

[3] – مارمول كرجفال– أفريقيا – ترجمة : محمد حجى وأخرون – الرباط – مكتبة المعارف – 1984م – ص 48 أنظر الأمين عوض الله : تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى واثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادى " تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر – بغداد – معهد البحوث والدراسات العربية – 1984 – ص 182

[4] – محمد زنيبر – المرجع السابق – ص 181

للتجار[1] ، كذلك عمل البعض الآخر أدلاء للقوافل التجارية حتى لاتضيع في طرق الصحراء ومن أبرز المدن التي اشتهرت كمحطات تجارية تمر بها القوافل بين بلاد المغرب ودولة الكانم مايلى : -

1 – غدامس : -

تقع مدينة غدامس على مسافة 500 كم إلى الجنوب الغربي من طرابلس وتتمتع غدامس بموقع إستراتيجي جعلها مركزاً تجارياً منذ العهد الروماني[2] وفي العهد الإسلامي لعبت غدامس دورا هاماً في تسهيل مرور القوافل التجارية بين الشمال والجنوب خاصة وإنها تقع في مفترق الطرق التجارية القادمة من تونس وطرابلس ، وقد تحدث المؤرخون القدامى عن هذه المدينة بما يؤكد أهميتها التجارية فالوزان فيصفها بأنها " منطقة كبيرة مسكونة حيث القصور العديدة والقرى المأهولة"[3]، ويؤكد الوزان الدور التجاري للمدينة وتأثير التجارة على اقتصادها بقوله: "سكانها أغنياء لهم بساتين نخل وأموال لأنهم يتجرون مع بلاد السودان "[4]، أما القزويني فإنه يتحدث عن الجلود الغدامسية ويصفها بأنها من أجود أنواع الدباغ لا شيء يفوقها في الجودة[5] كذلك مما يدل على اهتمام أهل غدامس بالتجارة وجود جالية كبيرة من أهل غدامس في تمبكتو[6]، وكانت غدامس مركز تجمع للقوافل

---

(1) – محمد سليمان أيوب " جرمة في عصر إزدهارها " ليبيا في التاريخ – بنغازى – جامعة قار يونس – 1968 م – ص 192

(2) – الأمين عوض الله – المرجع السابق – ص80

(3) – الوزان – المصدر السابق – جـ 2 – ص 146

(4) – المصدر نفسه – جـ 2 – ص 146

(5) – زكريا بن محمد القزويني – آثار البلاد وأخبار العباد – بيروت – دار صادر – (د. ت) – ص 57

(6) – تمبكتو تقع على الحافة الجنوبية للصحراء وقد تأسست في القرن الخامس الهجري وقامت بدور كبير في مجال التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها كما قامت بدور ثقافي كبير عن طريق جامع سينكري وقد قال عنها السعدي (مادنستها عبادة الاوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن) –أنظر السعدى – المصدر السابق – ص 21– أنظر ايضاً محمد بن ابي بكر البرتلي –

القادمة من طرابلس وتونس ثم تتفرع منها الطرق حيث يتجه بعضها إلى بلد تادمكا وغيرها من بلاد السودان [1]، حيث ارتبطت غدامس تجاريا بمدينة تينبكت وجاوه واقدز فصارت محطة مهمة في بداية الطريق عبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى إلى السودان [2] بينما يتجه بعضها الآخر إلى أغاديس ثم إلى كانم ويتجه بعضها إلى مرزق ومنها إلى بلما ثم بورنو[3] ، ولم يكن دور غدامس مقتصراً على اعتبارها محطة لطرق القوافل بل كان أهلها تجاراً يسيرون بعض القوافل لحسابهم ، وقد حدثنا ابن بطوطة عن مرافقته لقافلة كبيرة من الغدامسيين من كوكو على نهر النيجر إلى تكدا[4] ، إذاً فموقع مدينة غدامس قد جعلها حلقة وصل ليس بين الساحل والسودان فقط بل لعبت دوراً في الاتصال التجاري بين المغرب الأدنى والأوسط بالتقاء القوافل التجارية على أرضها وانطلاقها منها .

2 – غات : –

تقع غات في الجهة الغربية من إقليم طرابلس وترتبط مع الشمال بغدامس[5] وقد لعبت غات نفس الدور الذي لعبته مدينة غدامس كحلقة وصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب بحكم موقعها القريب من المغرب الأدنى والمغرب

فتح الشكور في تراجم علماء التكرور– تحقيق:الهادي المبروك الدالي – بنغازي – دار الكتب الوطنية –2002– ص 16

[1]- محمد بن عبدالمنعم الحميري –الروض المعطار في خبر الاقطار – تحقيق :احسان عباس – بيروت – مكتبة لبنان – 1975م–ص 427

[2] الهادي المبروك الدالي – التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا فيما وراء الصحراء – الدار المصرية اللبنانية – 1998م–ص297

[3] – الأمين عوض الله – المرجع السابق – ص 80 ، 81

[4] – محمد بن عبدالله بن بطوطة –تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار –بيروت – دار الشرق العربي (د.ت) ج2– ص 709

[5] – أنظر الخريطة في الملحق رقم / (16)

الأوسط مما جعلها من المراكز التجارية المهمة التي تلتقي فيها طرق القوافل[1] ، ومن جهة أخرى فإن موقع مدينة غات في منتصف المسافة تقريباً بين طـــرابلس ومناطق بحيرة تشاد ونهر النيجر قد جعلها محطة مهمة لطرق القوافل للاستراحة والتزود بالماء والزاد فإن كانت المسافة بين طرابلس وكانو تقطعها القوافـــل فـــي 125 يوماً فإن المسافة بين طرابلس وغات تقطعها في 55 يوماً[2] ، لقـــد ســـاعد على نجاح مهمة غات كحلقة وصل ، أن قبائل الطوارق المنتشرين بالمنطقة قـــد حرصوا على سلامة القوافل التجارية لارتباط مصادر عيشهم بهذه القوافل ومـــن المعروف أن تجارة القوافل يرتبط استمرارها بوجود الأمن في المناطق التي تمـــر بها .

3- زويله : -

تقع مدينة زويله إلى الجنوب الشرقي من سبها[3] وتبعد عنها بحوالي 170 كم[4] ، وقد لعب موقع زويله المتوسط دوراً كبيراً في ازدهار تجارة القوافل بين الـــشمال والجنوب ، وقد عبر الأصطخرى عن هذا الدور بقوله " وأما زويله فإنها من حـــد المغرب وهى مدينة وسطة لها كورة عريضة وهى متاخمة لأرض السودان "[5] ، ويؤكد الحموي هذا الموقع المتوسط بقوله " تقع زويله مقابل أجدابيا في البر بـــين بلاد السودان وأفريقيا ، وهى أول حدود السودان "[6] ففي هاتين الإشـــارتين مـــن المصادر القديمة ما يؤكد أن زويله متاخمة لبلاد الكانم والبرنو مما منحها مكانـــة تجارية كبيرة باعتبارها أولى حلقات الاتصال بين الكانم والبرنو وشمال أفريقيـــا ، ويعد الطريق المار من زويله إلى بلاد السودان من أقدم الطرق التي ربطت شمال

---

(1) – محى بوعزيز – المرجع السابق – ص 131

(2) – المرجع نفسه – ص 132

(3) – أنظر الخريطة في الملحق رقم /(16)

(4) – الحضيرى – المرجع السابق – ص 40

(5) – الأصطخرى – المصدر السابق – ص 30

(6) – الحموى – المصدر السابق – جـ 3 – ص 160

الصحراء بجنوبها ، حيث أشار اليعقوبى في فترة مبكرة إلى هذا الطريق الذي يخرج من سرت إلى ودان ثم زويله حتى يصل إلى كاوار[1]

إن ما يدل على شهرة زويله التجارية في ذلك الوقت وجود تجار من مناطق بعيدة عن أفريقيا حيث ذكر اليعقوبى أن بها أخلاطا من أهل خرسان والبصرة والكوفة[2] ولاشك أن ماجلب هذه العناصر إلى منطقة وسط الصحراء لم يكن سوى التجارة وبذلك أصبحت زويله مركزاً للتجار العرب ، كما وجد فيها الأباضية مكاناً مناسباً للسيطرة على تجار القوافل[3] وقد اشتهرت زويله بالسيطرة على تجارة الرقيق كما اشتهرت بالتجارة في الجلود حتى اشتهرت الجلود الزويليه[4] .

4- مرزق

تقع مدينة مرزق إلى الجنوب الغربي من سبها وتبعد عنها بحوالي 180 كم[5]، وقد ساعدها موقعها المتوسط على أن تكون إحدى المحطات الرئيسة في طرق القوافل ، حيث كان يمر بها الطريق الذي يبدأ من طرابلس حتى يصل إلى منطقة بحيرة تشاد ، كذلك كان يمر بها فرع من الطريق الذي يبدأ من تونس إلى غدامس وعند وصوله إلى مدينة غات يتجه فرع منه إلى مرزق[6].

لقد تمتعت مرزق ببعض الاستقرار السياسي في عهد دولة أولاد محمد[7] حيث انتعشت الحياة الاقتصادية و ازدهرت تجارة القوافل ، وأصبحت مرزق مصدراً لتصدير الحبوب كما امتلأت أسواقها بالمنسوجات الحريرية والأسلحة

---

(1) – اليعقوبى – كتاب البلدان – ص 102

(2) – المصدر نفسه – ص 102

(3) – صالح ابراهيم شيخلى – المرجع السابق – ص 123

- (4)Levtzion,N-Ancient Ghana and Mali ,Africana publishing Company , London –1980 –P 174

(5) - الحضيرى – المرجع السابق – ص 64

(6) – انظر الخريطة في الملحق رقم (16)

(7) – تنتمي هذه الدولة إلى محمد الفاسى الذي جاء من المغرب الأقصى وأستقر في مرزق ثم نجح في سنة 957 هـ / 1550 م في الاستيلاء على منطقة فزان وأقام دولة توارثها أولاده من بعده ، وأتخذ من مرزق عاصمة لهذه الدولة " أنظر الحضيرى – المرجع السابق – ص 47

والزجاج والعطور ، كما نشطت تجارة الرقيق[1] ويبدو أن صلة مرزق بالسودان الغربي عن طريق غدا مس وتوات أكثر من صلتها بإقليم برنو وقد اعتمد في هذا الرأي على وقوع مرزق في الجانب الجنوبي الغربي من إقليم فزان وارتباطها بمد ينة غات الواقعة قريبا من مناطق المغرب الأدنى والأوسط ، ويرى الباحث أن صلة مرزق بدولة الكانم والبرنو لاتقل عن صلتها بالسودان الغربي بحكم موقعها المتوسط الذي تمر به طرق القوافل من طرابلس إلى منطقة بحيرة تشاد .

5- بلما : -

تعد هذه المدينة عاصمة إقليم كاوار الذي يقع بين منطقة فزان وبين منطقة بحيرة تشاد، وتعد هذه المدينة إحدى المحطات التجارية التي تمر بها طرق القوافل[3] فوقوعها على الطريق الذي يبدأ من طرابلس وينتهي عند دولة الكانم قد اكسبها أهمية تجارية أدت إلى ازدهار هذه المدينة التي وصف الحموى سكانها بانهم " يلبسون ثياب الصوف ، وفي بلادهم أسواق ومياه جارية ونخل كثير" [4]، وقد أكد الأدريسى مرور الطرق التجارية إلى بلاد الكانم بمنطقة كاوار وذكر بعض المحطات التجارية في هذه المنطقة[4]، وقد اسهم أهل كاوار في تجارة القوافل بإنتاج سلعة مشهورة هى الشب الكاوارى الذي يصفه الأدريسى بأنه في نهاية الجودة وهو كثير الوجود ، ويتجهز به في كل سنة إلى سائر البلاد بما لايحصى كثره[5] .

هذه أبرز المحطات التجارية على طرق القوافل بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو ، وهناك بعض المحطات الثانوية التي لاتمر بها القوافل إلا مروراً عابراً مثل ودان وسوكنه وسبها وغيرها من المحطات الصغيرة ، ولعل ما ميز

---

(1) – محمد سليمان أيوب – المرجع السابق – ص 105

(3) – أمين الطيبى – المرجع السابق – ص 124

(4) – الحموى – المصدر السابق – جـ 4 – ص 90

(4) – الأدريسى – المصدر السابق – ج1– ص 117

(5) – المصدر نفسه – ج1 ص 117

المحطات الرئيسة أنها كانت أسواقاً للتبادل والتجارة ومراكز لانطلاق القوافل إلى الشمال حيث بلاد المغرب أو إلى الجنوب حيث دولة الكانم والبرنو .

د / السلع وطرق التعامل التجاري بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو

كان من الطبيعي تأثير البيئة الجغرافية في طبيعة السلع المتبادلة بين المغرب ودولة الكانم والبرنو فالسلع التي تسوق من منطقة بحيرة تشاد تختلف عن السلع التي تجلبها القوافل من مناطق الشمال إلى هذه المنطقة ومن هنا قسمنا السلع المتبادلة بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو إلى قسمين هما : -

1- السلع المغربية / ونقصد بهذا المصطلح السلع التي تحملها القوافل من بلاد المغرب نحو دولة الكانم والبرنو سواء أكانت هذه السلع من إنتاج بلاد المغرب أم كانت مستوردة من خارج أفريقيا عن طريق البحر ومن أهم هذه السلع : -

أ - الملح / يعد الملح بالنسبة للسودانيين من أهم السلع ولاتقل أهميته عن أهمية الذهب بالنسبة للمغاربة [1] ، بل يعتبر الملح في بعض الاحيان أهم من الذهب بالنسبة للأفارقة ، وربما ترجع أهمية الملح بالنسبة للسودانيين لقيمته الغذائية ونظراً لأن هذه المادة معدومة في السودان فإنهم كانوا يستبدلونه بوزنه ذهباً بل صار الملح في بعض الأحيان عملة شرائية حيث كانوا يقطعونه قطعاً ويتبايعون به[2]، ولعل سبب ارتفاع سعر الملح في منطقة السودان الأوسط يعود إلى أن أغلب مصادره تقع في بلاد المغرب الأقصى مما تعذر وصوله مباشرة إلى السودان الأوسط وزاد من سعره حتى أصبح حمل جمل من الملح يصل ثمنه إلى ما يعادل ثلاثمائة دينار[3] ، كذلك اشتهرت منطقة تغازة كمصدر للقوافل المتجهة إلى بلاد السودان وقد وصف لنا ابن بطوطة كيفية استخراج الملح فكان " يحفر

---

(1) - الأمين عوض الله - المرجع السابق ص 84

(2) - ابن بطوطة - المصدر السابق -ج2- ص 687

(3) - ابن حوقل - المصدر السابق - ص 98

عليه في الأرض فتوجد منه ألواح متراكمة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض يحمل الجمل منه لوحين " [1].

ومن المناطق التي كان يستخرج منها الملح أيضاً كاوار وخاصة مدينة بلما[2] التي استفاد أهلها من تصدير هذه المادة الثمينة مستغلين وقوع مدينتهم على طريق القوافل المتجهة إلى بحيرة تشاد ، ولكن يبدو أن الملح كان سلعة نادرة يدفع ثمنها ذهباً في بلاد السودان .

ب – الخيول والأسلحة : تعد الخيول من أبرز ما حرص مايات الكانم والبرنو على الحصول عليه من بلاد المغرب وذلك لحاجتهم لها في جيوشهم ، ومما يؤكد اعتماد هؤلاء المايات على الخيول أن عددها وصل في جيش دونمه دباليمى (618 – 657 هـ / 1221 – 1258 م) إلى مائة ألف فرس[3]، وبلغ من تعلق مايات الكانم والبرنو بهذه الخيول ماذكر من أن الماى دونمه بن عمر (829 – 831 هـ / 1425 – 1427 م) كان ينظر إلى خيوله كما ينظر لأمه ويبدو أن هذه الأعداد الكبيرة قد جاء اغلبها عن طريق الشراء من بلاد المغرب لأن خيول بلاد الكانم والبرنو يؤخذ عليها صغر حجمها وبطء حركتها ، وكان حكام الكانم والبرنو يفضلون مبادلة الخيول بالرقيق بدلاً من الذهب[4] ، وربما يرجع هذا إلى قلة الذهب في دولة الكانم والبرنو مقارنة بممالك السودان الغربي ، حيث كان الحصان الجيد يساوى مابين خمسة عشر إلى عشرين عبداً.

أما الأسلحة فقد كان مايات الكانم والبرنو حريصين على امتلاك الأسلحة النارية التي كان مصدرها الوحيد في ذلك الوقت بلاد المغرب ، وقد أرسل أدريس الوما بسفارة إلى السلطان العثماني مراد على أمل الحصول منه على الأسلحة

---

[1] – ابن بطوطة – المصدر السابق–ج2 ص 687

[2] – ديرك لانجى – المرجع السابق – ص 257

[3] – ديوان الكانم والبرنو – المصدر السابق – ص 32

[4] – الوزان – المصدر السابق – ج2– ص 176

النارية لجيشه، وقد حصل إدريس على بعض الأسلحة عن طريق تجار القوافل من طرابلس [1]

جـ / الملابس وأدوات الزينة : كان من بين السلع التي تستوردها بلاد الكانم والبرنو من المغرب الملابس التي كانت تصنع محلياً في بلاد المغرب أو يتم استيرادها من أوربا ويتم تصديرها إلى بلاد الكانم على هيئة أقمشة صوفية وقطنية ملونة وكانت الملابس المجلوبة من تونس على وجه الخصوص محل إعجاب وقبول في دولة الكانم والبرنو ففي عهد دونمه دباليمى كانت " الثياب تحمل إليه من الحضرة التونسية " ، وبشكل عام فإن البضائع التي يرغب فيها الناس بكانم ويقدرونها هي التي تستجلب من تونس ، أما أدوات الزينة فكانت تشمل الحلي وهى عبارة عن حبات تستعمل كعقود للنساء ، وكذلك العطور التي كان يعجبهم منها القرنفل والمصطكى[4] ، وكذلك كان الزجاج والفخار والتحف تمثل بعض السلع التي تصل عن طريق التجارة إلى بلاد كانم [3]

2- **السلع السودانية** : نقصد بالسلع السودانية ماكان مصدره منطقة بحيرة تشاد أوما يتم جلبه من المناطق المتاخمة لها من الجنوب ومن أبرز أنواع التجارة التي اعتمدت عليها دولة الكانم والبرنو هي :

أ:- تجارة الرقيق ، حيث هاجم مايات الكانم والبرنو المناطق المجاورة لهم من الجنوب للحصول على الرقيق وقد وصف سكان هذه المناطق بأنهم من أكثر الناس نسلاً [4] ، وكان التجار يبقون في بورنو مدة قد تصل شهوراً انتظارا للغارات التي يقوم به المايات على الجنوب لجلب إعداد من الأسرى بغرض بيعهم إلى

---

[1] – فضل كلود – المرجع السابق – ص 108

[2] – ابن بطوطة – المصدر السابق – ج2- ص 693

[3] – محمود ناجى – المرجع السابق – ص 73.

[4] – الأدريسى – المصدر السابق –ج1- ص 22

هؤلاء التجار[1] ، وقد اشتهرت زويله بأنها مركز لتجميع الرقيق ثم بيعهم إلى مناطق الشمال حيث ذكر اليعقوبى أن التجار البربر جلبوا إلى عاصمة فزان عديداً من الرقيق الأسود[2] ، ولم تكن المناطق الجنوبية وحدها مصدراً للرقيق بل كانت بلاد الكانم أحد المصادر للرقيق حيث اشتهرت بجواريها الحسان وفتيانها الأقوياء[3] ، والمرجح أن هؤلاء الأرقاء كانوا من غير المسلمين ، حيث إن تجارة الرقيق بالنسبة لدولة الكانم والبرنو كانت أحد مواردها الاقتصادية وعوضت بهذه التجارة نقص الذهب بأراضيها مقارنة بممالك السودان الغربي التي اعتمدت على الذهب كسلعة رئيسة في المبادلات التجارية مع الشمال ، ولكن مهما بلغت قيمة تجارة الرقيق فإن كانم كانت تدين برخائها إلى غلاتها الزراعية وإلى تربية الحيوانات أكثر مما يرجع إلى مواردها الناتجة عن تجارة العبيد[4] بمعنى أن تجارة الرقيق لم تكن المورد الوحيد للاقتصاد في دولة الكانم والبرنو.

وأخيراً نرى أن أسر أعداد كبيرة من البشر وإجبارهم على مغادرة بلادهم قسراً لبيعهم إلى تجار القوافل قد مثل نقطة سوداء في تاريخ دولة الكانم والبرنو ، فالإسلام قد جاء ليحرر الإنسان وحثت تعاليمه على احترام كرامته ، ولكن دافع الثراء المادي غير المشروع قد طغى على بعض مايات الكانم والبرنو وجعلهم يحترفون هذه المهنة غير الإنسانية ويكفينا دليلاً على امتهان كرامة الإنسان أن الحصان المستورد من بلاد المغرب كان يصل ثمنه إلى حوالي عشرين عبدا . وهو ما يخالف تكريم الله سبحانه وتعالى لبنى آدم حيث يقول الله تعالى :

(ولقد كرمنا بنى أدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)[5]

---

[1] – اليعقوبى – البلدان – ص 102

[2] – اليعقوبى – البلدان – ص 102 أنظر أيضاً :

Levtzion – op. cit-P 116

[3] – ابن بطوطة – المصدر السابق – ج2 –ص 711

[4] – ديرك لانجى – المرجع السابق – ص 258

[5] – الآية – 70 من سورة الإسراء

ب:- بالإضافة إلى الرقيق نجد مجموعة من السلع التي كانت دولة الكانم والبرنو تصدرها إلى بلاد المغرب من بينها الشب الكاوارى الذي يستعمل في أغراض الصباغة والدباغة وفي الأغراض الطبية أيضاً[1] وقد وصف هذا النوع من الشب بالجودة وكان يوجد بكثرة بحيث (يتجهز به كل سنة إلى سائر البلاد بما لايحصى كثره) [2] ، وكان يستخرج من منطقة كاوار بكميات كبيرة لذلك عرف بالشب الكاوارى [3] .

ج- كذلك من السلع التي كانت دولة الكانم تصدرها إلى الشمال العاج حيث ذكر بوفيل أن التجار كانوا يقيمون في ولاته لجمع العاج من سائر أقاليم السودان ويصدرونه إلى المغرب ثم إلى أوربا [4] ، وكذلك ريش النعام الذي كان يستعمل كمراوح وأغطية للرأس وقد شهدت هذه السلعة رواجاً كبيراً في أوروبا [5] .

د:- وهناك أيضاً الجلود التي كانت ذات قيمة صناعية كبيرة في ذلك الوقت حيث صنعت منه الأحذية وقرب المياه والسيور والأسواط وألجمة الخيل ، وكانت الجلود الخام تصدر إلى عدد من الواحات الليبية وبعد ذلك يتم دبغها وتصنيعها ، وقد اشتهرت مدينة زويله بتصنيع هذه الجلود ، كما عرفت الجلود الغدامسية في أنحاء المنطقة في ذلك الوقت بل وصلت شهرتها إلى أوربا ، حيث كان الغدامسيون

---

[1] -الطيبى – كانم برنو بالسودان الاوسط – ص 77

[2] – الأدريسى – المصدر السابق –ج1 – ص 118

[3] – ولاتة: شيدت هذه المدينة في القرن الرابع الهجري وهي الاسبق في الحضارة من مدينة تمبكتو فكانت مركز اشعاع علمي في غرب افريقيا، وقد ارتحل اليها العلماء في عهد سني علي ملك سنغاي (انظر البرتلي – المصدر السابق – ص 40)

[4] - بوفيل - المرجع السابق - ص 105

[5] – ماريون جونسون – تجارة ريش النعام – مجلة البحوث التاريخية – طرابلس – مركز دراسات جهاد الليبيين – عدد 1 يناير – 1981 م –ص133

يقومون بدبغ الجلود بنقعها في الشب والملح [1] وقد وصفها القزويني بأنها من أجود أنواع الدباغ ولاشيء يفوقها في الجودة وكأنها ثياب الخز في النعومة والإشراق [2] .

هذه أبرز السلع التي كانت دولة الكانم والبرنو تصدرها إلى بلاد المغرب مقابل ما تحصل عليه من سلع قادمة من بلاد المغرب [3]، أما طرق التعامل التجاري فقد كانت تتركز على المقايضة ، وقد رأينا كيف كان الحصان الجيد المستورد من بلاد المغرب تتم مقايضته بحوالي 20 عبداً كذلك يشير البكري إلى المقايضة في قوله (يجلب من زويله الرقيق إلى ناحية أفريقيا ومبايعتهم بثياب قصار حمر)[4]، ولا يعنى هذا اقتصار المعاملة التجارية على المقايضة بل عرف الكانميون التعامل بالودع والخرز كنوع من أنواع العملة وكان الودع يجلب من المحيط الهندي على أيدي التجار العرب ثم ينتقل إلى أواسط أفريقيا ويذكر الوزان أن أربعمائة ودعة تعادل أوقية من الذهب[5]، وظل الودع عملة معترف بها حتى القرن التاسع عشر

كما كان عندهم نوع من القماش عرف بإسم (دندى) حيث كان ينسج عندهم على شكل أثواب ويقسم إلى قطع من ربع ذراع فأكثر ، وكانت جميع الأشياء تقدر قيمتها بسعر هذا القماش[6] ، بمعنى إن هذا القماش قد أستخدم كنوع من أنواع العملة في دولة الكانم والبرنو ، كذلك يذكر القلقشندى إن أهل كانم قد استعملوا قطع النحاس المكسور كعملة [7]، وهكذا عرف الكانميون أغلب أنواع التعامل التجاري التي كانت سائدة في ممالك السودان ، وعوضوا نقص الذهب في

---

[1] – الطيبى – المرجع السابق – ص 125 .

[2] – القزويني – المصدر السابق – ص 57

[3]– أنظر خريطة السلع المتبادلة في الملحق رقم 15

[4] – البكرى – المصدر السابق – ص 11

[5] – الوزان – المصدر السابق – ج2– ص 167 (الأوقية = 1/2 27 جراماً) أنظر الأمين عوض الله – المرجع السابق – ص 94 .

[6] – العمرى – المصدر السابق – جـ 2 – ص 96 .

[7] – القلقشندى – المصدر السابق – جـ 5 – ص 270

بلادهم بسلع أخرى تحصلوا من خلال تصديرها على ثـروات كبيـرة أدت إلـى ازدهار الحياة الاقتصادية في تلك البلاد .

هـ / أثر التجارة في التواصل الحضاري بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو

لقد رأينا فيما سبق وجود طرق ثابتة للقوافـل وانتظـام انتقـال البـضائع بواسطة هذه القوافل بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو ، وكان لهذه القوافـل التجارية أثار كبيرة على المجتمعات الأفريقية في مناطق السودان (فالصحراء لم تكن في يوم من الأيام تشكل عائقاً دون الاتصال الحضاري المثمر بين الإقليمـين وكانت الأسس المباشرة لهذا الاتصال هي التجارة وتبادل السلع) [1] ، بمعنـى أن القوافل التجارية قد حملت إلى مناطق السودان مع البـضائع أنماطـاً حـضارية انتشرت مع مرور الوقت في تلك المناطق .

دور التجارة في نشر الإسلام واللغة العربية في الكانم والبرنو :

لقد عرفت منطقة بحيرة تشاد التجار القادمين من الشمال منذ فترات قديمة ، وبعد ظهور الإسلام وانتشاره في بلاد المغرب لاحظ سكان المنطقة التغير الذي طـرأ على هؤلاء التجار بعد اعتناقهم للإسلام حيث أصبحت حيـاتهم تـسير بالمعيـار الإسلامي [2]، ولا شك أن هذا التغير قد لفت أنظار الـسكان المحليـين وجعلهـم يحاولون معرفة سر هذا التغير مما أدى إلى تعرفهم على الإسلام وأدى بالتالي إلى انتشاره في المناطق التي وصلتها القوافل التجارية ، لذلك لم يبالغ أحـد البـاحثين عندما رأى أن نشر الإسلام في الجهات التي لم تصلها جيـوش الفـتح بأفريقيـا السوداء يعود الفضل فيه إلى التجارة وحدها [3].

لقد رأينا أن هذا الانتشار كانت أهم وسائله التجارة حيث بدأ هذا الانتـشار في الأوساط الشعبية قبل أن يبدأ مع الحكام مما يدل علـى أثـر التجـار الـذين يختلطون بهذه الأوساط أكثر من اختلاطهم بالمايات ، فعلى الرغم من أن مهمـة التجار الرئيسة هي المنفعة وكسب العيش من خلال التبادل التجاري مـع التجـار

---

[1] – الأمين عوض الله – المرجع السابق – ص 70 .

[2] – عطية مخزوم – المرجع السابق – ص 74

[3] – محمد الغربى – المرجع السابق – ص 430

الأفارقة إلا أنهم كانوا الأساس في نشر العقيدة الإسلامية [1] ، حيث كان بعض التجار يجمعون بين العلم والتجارة عن طريق الدعوة ، والبعض الآخر ينشرونه بفضل سلوكهم الإسلامي الذي يثير إعجاب الأفارقة فيدخلون هذا الدين .

لقد انتشرت إلى جانب الإسلام اللغة العربية باعتبارها لغة التعامل للتجار القادمين من بلاد المغرب من جهة ولارتباطها بانتشار الإسلام من جهة أخرى باعتبارها لغة القرآن الكريم ولكي يتعلم الداخل في الإسلام العبادات لابد من تعلم اللغة العربية ، وحيث إن التجار كانوا يستعملون اللغة العربية في معاملاتهم اليومية مع الأهالي فقد انتقلت أسماء الأوزان والمقاييس والمكاييل إلى اللغة العربية وتزايد عدد التجار القادمين من بلاد المغرب وضخامة القوافل التجارية ، ولاشك أن مثل هذه القوافل كان يرافقها آلاف التجار وقد اسهم هذا العدد الكبير عن طريق المعاملة اليومية في نشر اللغة العربية ، خاصة إذا عرفنا أن بعض التجار كان يفضل الإقامة في مناطق السودان ويتزوج من تلك المناطق[2] ، ومما يؤكد انتشار اللغة العربية في مناطق السودان وجود كلمات عربية في لغة الهوسا والفولي[3] خاصة فيما يتعلق بأسماء البضائع التي كانت تصدر إليها من المغرب[4]، ولعل مما اسهم في انتشار اللغة العربية في البلاط الحاكم في الكانم والبرنو إنها كانت لغة المراسلات الرسمية والاتفاقيات في ذلك العهد وحيث إن مايات الكانم والبرنو قد ارتبطوا بعلاقات سياسية مع مصر وبلاد المغرب لذلك

---

(1) – حميد دولاب – الجذور التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية – سبها – مركز البحوث والدراسات الأفريقية – 1993 – ص 49

(2) – الوزان – المصدر السابق –ج1– ص 41

(3) – الفولي هي اللغة التي تتحدث بها قبيلة الفولاي في غرب إفريقيا (أنظر السرسيد أحمد (تجارة القوافل بين شمال وغرب إفريقيا وأثرها الحضاري) – تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر – بغداد – معهد البحوث والدراسات العربية – 1984 م – ص 154– انظر ايضا : محمد الفران – تأثير اللغة العربية في بعض اللغات الأفريقية – ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء – طرابلس – كلية الدعوة الإسلامية –1998م –ص 136

(4) – المرجع نفسه – ص 154

شعروا بالحاجة الملحة إلى تعلم اللغة العربية[1] كخطوة لتوطيد علاقاتهم مع إخوانهم من حكام البلاد الإسلامية في ذلك الوقت

نخلص من هذا إلى أن اللغة العربية انتشرت مع انتشار الإسلام[2] بفضل التجار الذين كان البعض منهم يتردد بشكل مستمر على دولة الكانم والبرنو ، بينما يبقى البعض الآخر منهم لفترات طويلة في تلك البلاد مما أدى إلى انتشار اللغة العربية في تلك المناطق .

*** دور التجارة في نقل المظاهر الحضارية إلى دولة الكانم والبرنو :**

لم تكن القوافل التجارية القادمة من بلاد المغرب إلى السودان تحمل سلعاً فقط بل كانت تحمل مظاهرا حضارية أثرت على مختلف جوانب الحياة في تلك المناطق حيث تأثر سكان الكانم والبرنو بمظاهر الحضارة في بلاد المغرب باعتبار تلك البلاد مصدرا للقوافل التجارية التي سار في ركابها الإسلام واللغة العربية ومن المظاهر التي انتقلت إلى تلك البلاد عن طريق التجارة الملابس ، فبعد أن كان الكثير من السكان عراه مؤتزرون بالجلود[3] انتشرت الملابس التونسية في المنطقة وكانت محل إعجاب من السكان حتى (أصبحت البضائع التي يرغب فيها الناس بكانم ويقدرونها هي تلك التي تستجلب من تونس) كما اشتهر الخز السوسى أى المجلوب من مدينة سوسة التونسية كلباس للملوك[4]واصبح أهل السودان يتشبهون في لباسهم بلباس أهل المغرب (وهم في ركوبهم كأنهم عرب)[5]، ومما يؤكد حرص الكانميين على اقتناء الملابس المغربية ماذكره البكرى من أنهم كانوا

---

(1) – أنظر رسالة إدريس بن عثمان إلى السلطان برقوق في مصر في الملحق رقم (1)

(2) – حسن أحمد محمود – المرجع السابق – ص 43

(3) – الأدريسى – المصدر السابق –ج1– ص 30

(4) – الحموى– المصدر السابق –جـ 3 – ص 282 ، أنظر أيضاً كعت – المصدر السابق– ص 115.

(5) –القلقشندى – المصدر السابق – جـ 5 – ص 287 .

يقايضون الرقيق بثياب قصار حمر[1]، كذلك أسهمت التجارة المتبادلة بين بلاد المغرب والكانم والبرنو في القضاء على بعض العادات السيئة المنتشرة في المنطقة كالإغارة وقطع الطريق والاستيلاء على ممتلكات التجار[2] ، ومن جهة أخرى أسهمت التجارة في ازدهار الحياة الاقتصادية في الكانم والبرنو وارتفاع المستوى المعيشي للسكان وخاصة الطبقة الحاكمة حيث يصف الوزان ثراء أحد الملوك بقوله (وقد رأيت كل مايجهز به خيله من ركابات ومهاميز وأعنة كلها من الذهب وكذلك القصاع والأواني معظمها من الذهب والسلاسل حتى سلاسل كلاب الملك كلها من الذهب الخالص)[3] كذلك كان للتجارة تأثير على القوة السياسية لدولة الكانم والبرنو حيث وفرت لها من الخيول ماجعل جيشها من أقوى الجيوش في المنطقة ، كذلك توفر لهذا الجيش عن طريق تجار القوافل السلاح الناري الذي مكن مايات الكانم والبرنو من السيطرة على المنطقة [4] .

وأخيراً فإن التجارة خلقت فرصاً جديدة للعيش فقد كان لتجار السودان في المدن الهامة على طرق القوافل وكلاء وأدلاء وفنادق تؤوى بضائعهم وحظائر لجمالهم وسائر دوابهم التي يحملون عليها بضائعهم[5].

نخلص من هذا إلى أن التجارة لعبت دوراً كبيراً في تقريب المسافة الحضارية بين الشمال والجنوب وتوطيد الصلات السياسية والاجتماعية بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو ، فضلاً عن دورها في ازدهار الحياة الاقتصادية لدولة الكانم

---

(1) – البكرى – المصدر السابق – ص 11

(2) –الوزان – المصدر السابق – ص 293

(3) – المصدر نفسه – ص 177

(4) – القشتالى – المصدر السابق – ص 67 .

(5) – ابن بطوطة – المصدر السابق – ج2–ص 708

والبرنو . (فإنتقال العادات والتقاليد بواسطة التجارة لم يكن أقل نفعاً من إنتقـــال الذهب والرقيق والملح والنحاس)[1]

– [1] vansino G,mauany ,R,Thomas .L.V – the Historian in tropical Africa – London – Oxford University 1961-P184